

أهمية رحلة الوزير جنيد بن محمد البخاري في تعريف البلاد العربية بإفريقيا

عبد الرحيم عيسى الأول

توطئة:

الحمد لله الذي ملاً أركان العالم ببدائع حكمته وعلم الإنسان ما لم يعلم ليشكر نعمه وآلاءه،
والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه
أجمعين.

وبعد فمما لا يخفى على أحد فيه اثنان أن اللغة العربية كانت لغة الدين والثقافة والإدارة
في غرب إفريقيا قاطبة قبل احتلال المستعمرين، فقد عرف أهل غرب إفريقيا اللغة العربية لأول مرة
عن طريق التجارة وذلك منذ القرن السابع الميلادي^(١). وكانت الثقافة العربية الإسلامية تنتشر
تدريجياً في المنطقة بفضل الإسلام الذي لم يزل يشكل ركناً أساسياً لتطور الثقافة حتى اليوم. أما في
نيجيريا، فقد ساعدت على سرعة محو الأمية وانتشار الثقافة فيها، زيارة الوفود الإسلامية المختلفة
كالونفريين والفلانين وغيرهما^(٢) وبعض الشخصيات الإسلامية البارزة أمثال عبد الكريم المغيلي وعبد
الرحمن السيوطي^(٣) وغيرهما من العلماء الأجلاء. وقد انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا

١- شيخو أحمد سعيد غلادنت: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٧٢م،
ص ١٩.

٢- عثمان برايم بارى: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للنشر والتوزيع بالقاهرة،
الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٢٦.

٣- آدم عبد الله اللوري: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، أغنيى نيجيريا، الطبعة
الثالثة، ١٩٧٨م، ص ٨٩.

انتشارا واسعا في القرن التاسع عشر بعد انبثاق الخلافة السكوتية التي أسسها المجدد الديني الشيخ عثمان بن فودي. وقد حاول المستعمرون إبادة هذه الثقافة عند احتلالهم البلاد ولكن باءت محاولاتهم في هذا التخطيط السيئ بالفشل بفضل ما قام بها حماة الثقافة الإسلامية من التخطيطات المضادة. وبدأت هذه الثقافة تتطور مرة أخرى في نيجيريا بعد الاستقلال، ومما ساعد على ذلك إرسال البعثة العلمية إلى البلدان العربية وإنشاء المدارس العربية النظامية العصرية في أنحاء مختلفة في شمال نيجيريا وغربها^(٤).

وإذا نظرنا إلى النثر العربي في نيجيريا عبر العصور أدركنا أنه كان نثرا عاديا لم يبلغ درجة الإنتاج الأدبي في القرن الخامس الهجري في مملكة برنو التي كانت أول مملكة إسلامية فيما عرف بنيجيريا اليوم، استخدم النثر العربي في المملكة للترابط بين التجار وكتابة الرسائل والوثائق الرسمية بين رجال الحكومة. ولم يتجاوز النثر العربي هذا الحد في ذلك العصر الغابر، ومنذ ذلك العصر، كان النثر العربي يتطور تطورا بطيئا إلى أن قام الشيخ عثمان بن فودي بثورته الإصلاحية في القرن التاسع عشر الميلادي. فاللغة العربية في تلك الخلافة كانت هي اللغة الرسمية مما جعلت الخلافة تشجع الثقافة تشجيعا بالغا حتى أصبح التعليم فيها وفق منهج الأزهر الشريف. وقد كثرت في هذا العصر الإنتاجات النثرية والشعرية. أما النثر، فمن ذلك النثر الديواني والتعليمي والخطابة في المناسبات الدينية المختلفة^(٥). وقد هيأ ما وصل إليه علماء هذه الخلافة مجالا واسعا لحماة الثقافة العربية في القرن العشرين لتجديد عزمهم في دفع عجلة الثقافة إلى الأمام على رغم ما تواجههم من المشاكل المادية والمعنوية، وبدأ النثر العربي يتناول الميادين الجديدة المختلفة بعد مغادرة المستعمرين، ومثل القصص الصغيرة وأدب الرحلات.

أدب الرحلات:

ولعل أفضل ما نستعمل به أن نقدم نبذة تاريخية وجيزة عن هذا الأدب. ومما لا شك فيه أن أدب الرحلات أدب قديم عند العرب بيد أنه لم يزل مجالا علميا جديدا لدى علماء نيجيريا، ومن هنا كان شعورنا بضرورة هذا التمهيد إتماما للفائدة. ومن المسلم به أن أدب الرحلات يلعب دورا هاما في عملية نشر الثقافة بين أمة وأخرى، ومما ساعد على إقبال العرب على هذا الأدب منذ وقت مبكر هو

٤- لبعض أسماء هذه المدارس انظر: علي أبوبكر، الثقافة العربية في نيجيريا، مطبعة عبد الحفيظ، بيروت

لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، ص ١٥٩-١٩٨.

٥- لتفصيل عن هذا انظر: شيخو أحمد سعيد غلادنت: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص ١٥٩-١٧٢.

أنه يتفق مع عاداتهم وتقاليدهم، إذ أنهم بطبيعة حالهم أهل تجوال وترحال. فكانوا يرتحلون لأسباب مختلفة وأغراض متباينة. فقد جاء ذكر بعض أسفارهم ورحلاتهم التجارية قبل البعثة في القرآن الكريم^(٦). وقد اتسعت رقعة هذه التجارة بعد الإسلام. ومن أقوى أسباب انتشار هذا الأدب عند العرب رغبتهم الشديدة لتحصيل العلوم وأداء فريضة الحج. وهذان الأمران هما اللذان فرضا عليهم الرحلات المواصلة عبر العصور والأزمان. هذا، وبموجب هذه الرحلات كانوا يصادفون بعض الأشياء الغريبة والجديدة والتي لم تكن معروفة في بيئتهم. ومن هنا شرعوا بتسجيل هذه الغرائب مما شاهدوها بعيونهم وسمعوها من علماء تلك المنطقة أو قرؤوها من كتبهم. فالرحالون بذلك يلتمسون معلوماتهم من ثلاثة مصادر. وقد أشار إلى هذا الرحالة عبد الله المقدسي عندما قال: "... فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام: أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه من الكتب المصنفة"^(٧). هذا، ولم نكد نقرب إلى منتصف القرن التاسع الميلادي حتى انتشر ما سجله رجال العرب من الأخبار^(٨)، وليس أدل على كثرة رحلات العرب وبعد مداها مما روي أنهم اكتشفوا أوروبا^(٩) ثم اكتشفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كرسstof كوليبوس عام ١٤٩٢م^(١٠). ومن أقدم كتب رحلات العرب التي تناولت الحديث عن إفريقيا كتاب البلدان لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) فقد جمع اليعقوبي معلومات قيمة في أثناء تجواله في شمال إفريقيا في كتابه البلدان الذي انتهى من تأليفه في مصر عام ٢٧٨هـ/٨٩١م^(١١). ومنها كتاب صورة الأرض لمؤلفه أبي القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، وقد سجل ابن حوقل رحلته الطويلة في بلاد السودان الغربي والشرقي والتي بدأها سنة ٣٣١هـ وانتهى منها بعدما يقرب من ثلاثين عاما^(١٢). ومنها كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي (ت ٣٩٠هـ/٩٩٩م)،

٦- انظر: سورة قريش.

٧- نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٢م، ص ٥١.

٨- شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٥٦م، ص ٤٩.

٩- Jacob M. Landua "Mohammed Thabit, A modern Arab Traveller" *Journal of Arabic*

Literature, M. M. Badawi Ed. Vol. 1, 1970, Leiden/ E. J. Brill, Neitherland, p. 70.

١٠- شوقي ضيف، المرجع نفسه، ص ٩.

١١- أحمد إلياس الحسين: "طرق القوافل عبر الصحراء والممالك الإفريقية..."، مجلة دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم، مطبعة التمدن المحدودة، ١٩٨٦م، العدد الثاني، ص ١٠٨.

١٢- إبراهيم سلمان الكروي: "أهمية رحلة ابن حوقل في تعريف المسلمين ببلاد السودان"، مجلة دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم، دار الأصالة للصحافة.

وكان المقدسي ينتقل من الأقطار ويزور الديار ثم يعطي هذا كله ليختتم وينظمه بحوثاً (١٣). ومن أشهر كتب رحلات العرب في العصور الوسطى كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجي المعروف بابن بطوطة (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م)، قد تجول ابن بطوطة أقطارا متعددة بما فيها غرب إفريقيا واستغرق في رحلاته حوالي ربع قرن (١٤). هذا، ومن كتاب أدب الرحلات في العصر الحديث محمد ثابت، وقد طاف محمد ثابت بأقطار مختلفة متعددة في أوروبا وآسيا وأمريكيتين وأستراليا وإفريقيا. بدأ رحلته عام ١٩٢٦م (١٥). ومن مؤلفاته في أدب الرحلات كتاب **جولة في ربوع إفريقيا بين مصر ورأس الرجاء الصالح** والذي طبع في مصر عام ١٩٣٣م (١٦). وقد تضمنت هذه المؤلفات كلها - وغيرها من المؤلفات في أدب الرحلات - المعلومات الغزيرة عن الأنشطة الثقافية والاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية، والأنظمة السياسية التي سادت في المناطق المختلفة، ومظاهر السطح والمناخ والنباتات والحيوانات، والمعادن السائدة فيها، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألوانهم، وما إلى ذلك من الأخبار وأحوال البيئات التي تحدت عنها. وهكذا أدى أدب الرحلات الوظائف التاريخية والجغرافية المهمة في جميع أقطار العالم وفي غرب إفريقيا بصفة خاصة قبل احتلال المستعمرين. هذا، ومن المضحك المبكي أن المستعمرين تجاهلوا وجود هذه المعلومات القيمة بعد أن قد استفادوا منها، ولم يعترفوا بها إذ رأوا أن اعترافهم بها لا يكون في صالحهم فيما يدعون إليه وفيما يزعمون من أنهم أول من جاء بالثقافة إلى إفريقيا. وعلى سبيل المثال، فإنهم كانوا يعلمون أبناء غرب إفريقيا بأن الرحالة منجوبار كان أول من اكتشف نهر النيجر برغم أن ابن بطوطة قد اكتشف هذا النهر قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون (١٧). ومثل هذا التناقض البين مما حمل المستعمرين على أن يجمعوا كيدهم على حمل هذه الوثائق المهمة من إفريقيا إلى متاحفهم ليصعب على الباحثين الاكتشاف عن هذه الحقائق التاريخية. و إلى أهمية هذه الوثائق العربية التي تركها كتاب أدب الرحلات يرجع قول رئيس جامعة أبادن سابقا الأستاذ كيننت دكي:

- ١٣- نقولا زيادة، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، ص ٥١.
- ١٤- أحمد إلياس الحسين: "طرق القوافل عبر الصحراء الإفريقية في المصادر العربية"، مجلة دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم، دار الأصالة للصحافة والنشر والإنتاج الإعلامي، ١٩٨٧م، العدد الثالث، ص ٦٩.
- ١٥- انظر: Jacob M. Landau, op. cit, P. 71.
- ١٦- محمد ثابت: **جولة في ربوع إفريقيا بين مصر ورأس الرجاء الصالح**. المطبعة الرحمانية بمصر الطبعة الأولى، ١٩٣٣م، والطبعة الثانية ١٩٣٦م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ١٧- أحمد إلياس الحسين: المرجع نفسه، ص ٧٠.

“... حين اقتحم الأوروبيون إفريقيا لم يحاول علماءهم أن يفهموا أو يبنوا على الحقائق التاريخية التقليدية التي وجدوها في المنطقة بل اعترضوا عليها وبدّلوها تبديلاً...” (١٨).

و إلى ذلك أيضاً يرجع قوله في مكان آخر:

“...تشكل الوثائق العربية مواد الخام لعملية البحثية في حقل الدراسات الإسلامية والتاريخية في إفريقيا. أنا شخصياً كمؤرخ، كان لي رغبة شديدة في هذا التطور إيماناً مني أنه بواسطة هذه الوثائق العربية أو الوثائق المكتوبة باللغات المحلية بالحروف العربية فقط يمكن للباحثين أن يكتشفوا عن خفايا إفريقيا في العصر الغابر...” (١٩).

وقد تحسّر الوزير جنيد تحسراً شديداً على مؤامرة المستعمرين وعلى سلبهم السلطة من أيدي

الأمراء المحليين قائلاً في إحدى قصائده:

ظعن الذين عهدت في ذا النادى	ما ذا وقوفك في الطلول تنادى
وعلام تبكى من بكاء حمامة	في ايكة تشدوا على الترداد
والدمع يجري فوق نحرک سائلا	كالماء يجري في مسيل الواد
ذهبوا وغير رسم دارهم البلا	المردى وطول تهجر وبعاد
حتى كان ذراهم لم يغشها	ذو حاجة من رائح أو غاد
صارت مراتع للوحوش بعد أن	كانت مقاصد حاضر أو باد
فسألتها أين الذين عهدتهم	قالت لقد بلغوا على الميعاد
قلت أخبريني من تخلف بعدهم	قالت تخلف دولة الأكراد
ما لي أرى دول الكرام وضیعة	قالت علتها دولة الأوغاد
فسألته ما خلق الذين تخلفوا	قالت ذوو فحش ذوو أحقاد (٢٠)

١٨- انظر: D. M. Last, *The Sokoto Caliphate*, Longmans, London, 1967, P- VII.

١٩- انظر: M. O. A. Abdul "The Teaching of Arabic in Nigerian Universities problems and prospects" in *Journal of Nigeria Association of Teachers of Arabic and Islamic Studies (NATAIS)*, vol. 11, No. 2, P. 42.

٢٠- الوزير جنيد: ديوان الوزير جنيد، مكتبة الوزير جنيد، بسكوتو، ص ٨.

وبرغم ما لأدب الرحلات من الفوائد التاريخية والجغرافية الجمة فإن علماء نيجيريا وغرب إفريقيا قد ضربوا عنه صفحا. فلا نغالي إذا قلنا بأن الوزير جنيد بن محمد البخاري هو أول نيجيري يعرفه هذا الكاتب، له إلمام بهذا النوع من الأدب. وقد أُلّف الوزير ما لا يقل عن سبع مؤلفات في ميدان أدب الرحلات، ومنها ما يأتي أدناه:

- ١- رحلة إلى أغدس.
- ٢- تفريح النفس بذكر زيارة العراق والقدس.
- ٣- إتحاف الحاضر بمراثي المسافرين.
- ٤- الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة.

هذا، ويهمننا في هذه المقالة المتواضعة كتاب الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة لِمَّا له من علاقة إيجابية في تقدم الثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا.

الوزير جنيد بن محمد البخاري: حياته وعلمه:

هو الوزير جنيد بن محمد بن أحمد بن غطاط بن ليم البخاري، كان من علماء القرن العشرين الأجلاء وحماة الثقافة العربية الإسلامية الذين يشار إليهم بالبنان في نيجيريا. ولد عام ١٩٠٦م في مدينة سكوتو بعد احتلال المستعمرين الخلافة السكوتية بثلاث سنوات (٢١). وقد توفي والده وهو كان في الرابعة من عمره، فأصبح تحت رعاية عمّه وزير سمبو ثم أخيه عبد القادر على الترتيب. قرأ القرآن على ملى عبد القادر مشيدو وتمت له قراءته قبل أن يبلغ العاشرة من سنه، ثم أقبل على طلب العلوم العربية والإسلامية بفروعها فتتلمذ على العلماء المتخصصين البارزين في الميادين العلمية المختلفة، منهم ملى يحيى بن وزير خليل الذي قرأ عليه المختارات من الشعر الجاهلي والمقامات للحريري والدالية لابن الناصر. ومنهم ملى القاضي بن عبد القادر الذي أخذ منه بعض كتب اللغة والتوحيد، ومنهم ذلك العالم المشهور أبو بكر المعروف بملى بوبي والذي قرأ عليه لامية الأفعال في علم الصرف والخزرجي في علم العروض، ومنهم الفانوح المالى الذي تعلّم منه بعض الكتب البلاغية، ومنهم ملى شيوخو كيكبي الذي تعلم منه فن الشعر، ومنهم كذلك ملى ما جى إسحاق الذي قرأ عليه عددا من الكتب، وقد رثى الوزير بعض شيوخه بعد وفاتهم اعترافا منه بمساهماتهم في بناء شخصيته العلمية، ومن ذلك قوله في حق الإمام مشيدو:

—٢١— Bashir Othman Ahmad, "Junayd Wazir in sokoto: A Biographical Note" in Tarihi Bulletin of Sokoto State History Bureau, vol. 1, No. 2, P. 46.

أقام سنين في نفع البرايا
أفاد الطالبين طوال الدهر
ومن ذلك قوله في شيخه ملم يحيى بن خليل:
سال دمع لفقدي يحيى الصبور
لا يرى عابسا أو ساخطا بل
ومن ذلك قوله في ملم أبي بكر بوبي:

أيا عين جودي بالدموع هوالنا
ونوحى على بحر العلوم وشمسها
ونوحى على فرد الزمان وشمسه
ونوحى على من كان يأمر بالتقى
ومن ذلك قوله في شيخه ملم ما جي إسحاق:

إذا قيل من فاق للدرس شرحا
إذا العلم أشكل أبوابه
إذا العلم أعوزني فهمه
أشارت أكف له ببنان
له عند حل العقود يدان
إلى باب إسحاق ألوى عتابي (٢٥)

وليس أدل على كثرة علم الوزير وعمق ثقافته من أن عددا لا يستهان به من علماء سكوتو اليوم من تلاميذه أو طلاب تلاميذه. ومن أبرز طلابه ملم خضر والأستاذ مى غواندو والشيخ معاذ وملم محمد بوين وملم عثمان مى سكونى وغيرهم، والجدير بالذكر أن الوزير جنيد قد فاق أقرانه من وزراء سكوتو السابقين في التأليف إذ يبلغ عدد مؤلفاته أكثر من خمسين مؤلفا نثرا وشعرا (٢٦). وقد قدم

٢٢- الوزير جنيد: ديوان الوزير جنيد، مكتبة الوزير جنيد، سكوتو، ص ٥٥.

٢٣- المرجع نفسه، ص ١٨.

٢٤- المرجع نفسه، ص ١٤-١٥.

٢٥- علي أبوبكر: الثقافة العربية في نيجيريا، ص ١٦٠.

٢٦- لقائمة أسماء مؤلفاته انظر: بشير عثمان أحمد، قائمة بأسماء المخطوطات العربية لعلماء سكوتو،

دار الوثائق التاريخية بسكوتو، ص ١٣-١٤.

الوزير الجنيد الخدمات الجليلة للإسلام والمجتمع بعلمه وثقافته، واعترافاً لخدماته كرم بوسامات مختلفة منها الدولية ومنها الوطنية(٢٧).

الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة(٢٨):

وصف المخطوطة:

هذه المخطوطة تحتوي على عبارات نثرية سجل فيها الوزير جنيد الأخبار والأحوال لبعض ما عينه وسمعه في إحدى رحلاته إلى ليبيا ومصر والسودان، وقد قام بهذه الرحلة مع أعضاء وفده بإشارة من حكومة شمال نيجيريا. وذلك بعد الاستقلال في عام ١٩٦٢م(٢٩). وقد وجدت المخطوطة هذه في دار الوثائق التاريخية بسكوتو تحت رقم ٢٦/٥/٤/١. وأما اسم ناسخها - وفقاً لما سجل في آخر صفحاتها - فهو سليمان بن علي، تقع المخطوطة في خمس عشرة صفحة وفي كل صفحة ما ينيف على ثلاثين سطراً ما عدا الصفحة الأخيرة. أما خط الناسخ فدقيق ورقيق، ويوجد في هذه النسخة من الأخطاء اللغوية الكثيرة ما لا يمكن إرجاعه إلى المؤلف، وهذا يدل دلالة واضحة على ضعف مستوى الناسخ العلمي أو قلة مبالاته أثناء النسخ.

محتويات المخطوطة:

أفادنا المؤلف في مقدمة المخطوطة بالدور الفعال الذي لعبته حكومة شمال نيجيريا لتطوير الثقافة العربية الإسلامية ورفع مستواها بعد الاستقلال(٣٠). فقد ذكر فيها أن الحكومة شكلت لجنة وزارية برئاسة وزير التربية والتعليم للنظر في قضية تنظيم المدارس العربية الإسلامية في نيجيريا، وفي آخر جلسات اللجنة اقترحت إلى الحكومة بإرسال وفد يضم كبار الشيوخ والعلماء إلى بعض البلاد العربية الإسلامية في إفريقيا بقصد تدريس الطريقة التي عالجتها بها تلك البلاد مشاكل التعليم العربية

٢٧- لقائمة أسماء هذه الوسامات انظر:

A. I. Lawal, "A study of Thematic and stylistic features in the Arabic Works of Wazir Junayd b. Muhammed al-Bukhari", An unpublished Ph.D Thesis in the Department of Arabic and Islamic Studies, University of Ibadan, Ibadan Nigeria 1995, pp. 95-96.

٢٨- يلاحظ قلة الدقة في عنوان المخطوطة لأن المؤلف ذكر في عنوانه ليبيا والسودان وهما اسمان للدولتين ثم ذكر القاهرة وهي اسم عاصمة مصر مع أن الوفد قد زاروا بعض الأماكن غير القاهرة في مصر، فالأحسن إذن أن يكون العنوان: الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان ومصر.

٢٩- شيخو أحمد سعيد غلادنت: المرجع السابق، ص ١١٠.

٣٠- الوزير جنيد: الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة، (مخطوطة)، دار الوثائق التاريخية بسكوتو،

رقم: ٢٦/٥/٤/١، ص ٢.

الإسلامية، وقد وافقت الحكومة على هذا الاقتراح، فشكلت أعضاء الوفد من كل المحافظات الشمالية وعيّن الوزير جنيد رئيساً للوفد(٣١). و إلى هذا يشير المؤلف بقوله:

“... يسرنى وأمثالي ما تصدره الحكومة الشمالية النيجيرية من صنائعها الجميلة إلى كافة سكان نيجيرية خصوصا ما أصدرته في هذه السنة من نظرها للشكول الدينية والعلوم الإسلامية وتصحيح أساسها الذي(٣٢) تقوم عليه لبيانها وتبليغها(٣٣) إلى الغاية المنشودة...” (٣٤).

وقد تقرر أن يزور الوفد ليبيا ومصر والسودان، وفعلاً غادر الوفد أرض الوطن في اليوم السابع من نوفمبر عام ١٩٦٢م(٣٥)، وبيّن الوزير جنيد الأهداف التي كلف الوفد بتحقيقها أثناء الزيارة، منها أن يقف الوفد على إدارة المدارس ومناهجها في هذه البلاد الإسلامية ليقتراح على ضوء ذلك نظاماً إدارياً ومنهجاً دراسياً يناسب بيئتنا النيجيرية، وإلى هذا يرجع قول الوزير:

“... ثم تفكرت في إرسال وكلاء إلى البلاد الإسلامية المجاورة لنيجيريا ليقفوا على كيفية إجراء المدارس هناك فيختاروا ما يوافق نيجيريا...” (٣٦).

زيارة ليبيا:

لفت الوزير أنظار القراء إلى بعض ملامح ليبيا ووصف مظاهرها وصفاً دقيقاً، وصف مطار ليبيا الدولي في طرابلس بالبعد عن العاصمة وقدر المسافة بينه وبين العاصمة بعشرين ميلاً(٣٧). وذكر الشخصيات الإسلامية والأكاديمية والسياسية والصحافية البارزة الذين تكروا بمقابلة الوفد بالمطار. كان منهم وكيل الجامعة الليبية الشيخ سليمان ومدير إدارة الوعظ والإرشاد الشيخ مصطفى والسيد ناظر العمل والشؤون الاجتماعية ومدير المطبوعات والنشر ورجال الصحافة والإذاعة(٣٨). أما إعجاب الوزير بمناظر طرابلس العاصمة ومظاهرها البديعة. فيبدو واضحاً في قوله:

٣١- شيخو أحمد سعيد غلادنت: المرجع السابق، ص ١٠٩-١١٠.

٣٢- وفي المخطوطة “التي” مع أنها ترجع إلى أساس، انظر، ص ١.

٣٣- وفي المخطوطة “وتبليغه” مع أن الضمير يرجع إلى “الشكول الدينية والعلوم الإسلامية، انظر: ص ١.

٣٤- المخطوطة نفسها، ص ١.

٣٥- شيخو أحمد سعيد غلادنت: المرجع السابق، ص ١١٠.

٣٦- الوزير جنيد: المخطوطة نفسها، ص ١.

٣٧- المخطوطة نفسها، ص ٢.

٣٨- المخطوطة نفسها، ص ٢.

“... فلا تسأل عن حسنه وطيب هوائه وكثرة سياراته وعرباته التي تجرها الخيول الجميلة والحرر الكبيرة بين المباني الشاهقة والخطوط المعدلة والطرق النظيفة الواسطة والمصابيح الكهربائية المتطونة والدكاكين المفتوحة التي تزدهر بالبضائع الرائقة والسلائع الفاخرة...” (٣٩).

وصف الوزير أيضاً قصر الملك إدريس وقصر ولي عهده. كما وصف أهم المدارس العربية الإسلامية التي أفاد القراء بزيارتها بطرابلس مدرسة البنات القرآنية ومدرسة الفنون والصنائع الإسلامية ومعهد أحمد باشا. وذكر أن أعضاء الوفد اطلعوا على طرق التدريس الحديثة والمناهج التعليمية على اختلاف المراحل أثناء الزيارة. وقد زار الوفد بطرابلس عدداً من الشخصيات البارزة أمثال فضيلة الشيخ المنصور المحجوب شيخ الجامعة الإسلامية، ورئيس المحكمة، كما زار الوفد دار الإذاعة الليبية والمحكمة العليا بطرابلس ومتحف مدينة صبراتة حيث توجد الآثار الرومانية واليونانية، قال الوزير في حق معهد أحمد باشا:

“... ثم قصدنا معهد العلم لأحمد باشا، وهو اسم لمن أسس المدرسة، ووجدنا مدير المعهد وبعض أساتذته في انتظارنا فاستقبلونا^(٤٠) بالترحيب هو وزملاؤه فجعلنا نتحدث، ثم اطلعنا على الطريقة الدراسية العصرية والمناهج العلمية المقررة على جميع طلاب مراحل المعهد. وقد أسهب الشيخ مدير المعهد وأساتذته في شرح المناهج وطرق التعليم...” (٤١).

وفي مدينة بنغازي وضواحيها قد زار الوفد الديوان الملكي وسجلوا أسماءهم في سجل تشريفات الملكية. ومن الأماكن التي زاروها ضريح الشهيد عمر المختار ومكتب رئيس مجلس الشيوخ وسوق الظلام، وهو سوق كبير يعرض فيه البضائع المختلفة للبيع المستوردة منها والوطنية، وعن هذا السوق يقول الوزير:

“... قمنا بزيارة سوق الظلام وجلنا فيها جولة تستغرق ساعة تقريبا، نتفرج على البضائع المختلفة المستوردة والوطنية وأنواع الحلبي من الذهب والفضة وغيرها مما تستحسنها^(٤٢) النفوس وتفرج بها^(٤٣) الأرواح...” (٤٤).

٣٩- المخطوطة نفسها، ص ٢.

٤٠- وفي المخطوطة “فقابلنا” انظر ص ٣.

٤١- المخطوطة نفسها، ص ٣.

٤٢- وفي المخطوطة “تستحسنه النفوس” وحولناها إلى “تستحسنها” لأن الضمير يرجع إلى “البضائع”.

٤٣- وفي المخطوطة “به” وحولناها إلى “بها” لنفس السبب السالف الذكر.

٤٤- المخطوطة نفسها، ص ٥.

ومن ضواحي بنغازي التي زارها الوفد مدينة البيضاء التي زارفيها الوفد بعض المدارس القرآنية وقبر رويغ بن ثابت الصحابي الجليل، ثم انتقل الوفد إلى مدينة شحات وهي من مدن برقة الشهيرة في أيام اليونان بليبيا. وفي هذه المدينة يوجد كثير من الآثار اليونانية العجيبة، مثل أواني من صنع اليوناني، والأسلحة، والعصى، والأقواس، والقيود اليدوية، ونقودهم، وتمائيل ملوكهم. وقد وصف الوزير مدينة شحات كما يلي:

“... وكانت شحات من أشهر مدن برقة في أيام اليونان وكانت ذلك العصر عاصمة هذا الإقليم، وأما الآن فأطلال دائرة وأبنية منهمة وآثار باقية عجيبة جداً، من آثار اليونان من المباني الغربية منها بيوت منحوتة في الجبل لها مدخل ومنافذ ومصاطب كلها منحوتة في هذا الجبل المطل على البحر الأبيض...” (٤٥).

هذا، وقد زار الوفد كذلك مدينة درنة حيث يوجد عدد كبير من قبور الصحابة رضوان الله عليهم ممن استشهدوا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد قدر الوزير عددهم بنحو ألف وثلثمائة وأربعين صحابياً. وقد أقيمت للوفد مأدبة عشاء في درنة تكريماً لهم. وغادر الوفد درنة بعد هذا ومروا بقرية مرج في عودتهم إلى بنغازي. ونبّه الوزير عن الزلزلة التي وقعت في القرية بعد رجوعهم من هذا السفر بأشهر وذكر بأنه قد مات في الزلزلة نحو ثلاث مائة نفر (٤٦).

زيارة مصر:

وضح الوزير ما قام به وفده من المجهودات الجبارة في سبيل تحقيق أهدافهم الدينية النبيلة عند نزولهم بمصر. زاروا عدة المدارس العربية الإسلامية وقبور الشخصيات البارزة والمساجد المأثورة وخاصة في القاهرة والإسكندرية، ومن المدارس التي زاروها المدرسة العباسية الابتدائية لتحفيظ القرآن ومدرسة الزيتون للبنات بالقاهرة، والمعهد الديني بالإسكندرية. ومن القبور التي زاروها قبر أبي دراء الصحابي الجليل وقبر أبي العباس المرسى بالإسكندرية وقبر أحمد البدوي بمدينة طنطا وضريح السيدة زينب وقبر زكريا الأنصاري وغير ذلك في القاهرة. وأما المساجد فقد زار الوفد مسجد سيدنا حسين ومسجد الأزهر الشريف بالقاهرة. ومما قام الوفد بزيارته بعض المتاحف والأهرام الثلاثة والأهرام الصغيرة المبعثرة ومتحف الآثار القديمة بالقاهرة حيث توجد جثث الفراعنة القدماء بما فيها فرعون

—٤٥— المخطوطة نفسها، ص ٥.

—٤٦— المخطوطة نفسها، ص ٨.

موسى، ومتحف الأحياء المائية بالإسكندرية. والآتي نص ما قال الوزير عن بعض هذه المتاحف. أما عن متحف الآثار القديمة بالقاهرة فقد قال:

“... ثم بعد ذلك قمنا بزيارة متحف الآثار القديمة بحيث كانت جثث الفراعنة القدماء في التوابيت المغطاة بالزجاج لم تبل جثثهم وتسمى تلك التوابيت بالموميا، وتفسرها تابوت الجثة المحنطة أي التي طليت بالأدوية المسكة التي تمنعها من التمرق، وترى كل جثة بهيئتها التي مات عليها صاحبها إلا أنها قد نشفت وصفت جداً لطول الدهر، لأن منها ما يرجع تاريخ موته إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، ومنها ما يرجع تاريخه إلى زمن موسى عليه السلام، وقد شاهدنا جثة فرعون موسى في موميائه...” (٤٧).

أما عن متحف الأحياء المائية فقد قال:

“... وقصدنا متحف الأحياء المائية وفيه أنواع مختلفة من السمك في ألوان مختلفة وأشكال متفرقة من عجائب صنع الله تعالى ... ترى في كل زاوية منها شكلاً ونوعاً من السمك لا يشبهه ما في زاوية أخرى. منها ما له وجه كوجه الآدمي ومنها ما هو على شكل الطائرة ومنها ما له لون أرقط ومنها ما لونه أبيض يتخلله حمرة ومنها ما هو أحمر قان مطرز بالسواد والبياض...” (٤٨).

زيارة السودان:

نزل الوفد بأرض السودان في أيام عيد الثورة للبلاد، ووصف الوزير المناظر الرائعة الجميلة التي وجدها الوفد في البلاد عند نزولهم، ومن ذلك قوله:

“... فنزلنا بها سحر حيث وجدنا مفتش أول الرئاسة بمصلحة الشؤون الدينية في استقبالنا بالمطار، وهم في هذه الأيام في عيد الثورة وقد أوقدوا المصابيح الكهربائية الملونة بين الخضراء والصفراء بنظام عجيب وصنع غريب يعجب الناظر...” (٤٩).

زار الوفد عدداً لا يستهان به من معالم مدينة الخرطوم وأم درمان وعقدوا مقابلات كثيرة مع عدد من الشخصيات الدينية والعلماء الأجلاء، وزاروا عدداً من مكاتب الصبيان للقرآن والمعاهد الدينية

٤٧- المخطوطة نفسها، ص ١١.

٤٨- المخطوطة نفسها، ص ٩.

٤٩- المخطوطة نفسها، ص ١٢.

والعلمية في المدينتين وضواحيهما التقليدية منها والعصرية، ومن تلك المعاهد المعهد العلمي بأبجرام حيث توجد مكتبة كبيرة مشحونة بالكتب المفيدة. وكما زار الوفد مصلحة الشؤون الدينية حيث دارت مناقشة مثمرة بينهم وبين المدير حول مناهج التعليم على اختلاف مراحلها، ومن ملاحظات المؤلف في ذلك قوله:

“... اجتمعنا بالسيد مدير مصلحة الشؤون الدينية وشرح لنا منهج التعليم وكيفية التدريس وتربية الأطفال من المدارس الابتدائية إلى الجامعة ثم وُزِع علينا(٥٠) تقاريرهم المدرسية...”(٥١).

قيمة الرحلة:

يظهر للقارئ جليا خلال هذا العرض الموجز لمحتويات المخطوطة أن الرحلة ذات الطابعين: الطابع الديني والطابع الاجتماعي، الأمر الذي جعل الوفد يهتمون في زيارتهم بالأماكن الدينية كالمساجد والمدارس الدينية وقبور الصالحين والشخصيات الدينية البارزة، وفي نفس الوقت يلمس القارئ في الزيارة بالطابع الاجتماعي الأمر الذي حمل الوفد على زيارة بعض المعالم الاجتماعية كالأسواق والمتاحف والمراكز الإعلامية كدار الإذاعة والمواقع الأثرية والمظاهر التقليدية والعصرية والظواهر الطبيعية. ومما لا يجادل فيه اثنان أن هذه الرحلة لها أثر عميق في تطوير الثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا وخاصة في المناطق الشمالية، إذ هي المسؤولة عن بعض الإصلاحات المتنوعة التي أدخلت في مدارس العلوم العربية والإسلامية والتحسينات التي تلاحظ في المدارس القرآنية بعد الاستقلال. والمعروف أن المستعمرين عندما احتلوا نيجيريا أدخلوا الثقافة الغربية وأهملوا الثقافة العربية الإسلامية المنتشرة قبل احتلالهم بقصد تبديلها بثقافتهم، وهكذا ترك المستعمرون شؤون التعليم بأيدي الإرساليات وسهلوا لهم كل الطرق والوسائل لسرعة نشر الدين المسيحي والثقافة الغربية(٥٢).

والجدير بالذكر أن الأمراء والآباء والشيوخ بالشمال لم يوقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه المؤامرة بل أبدوا بعدم رضاهم بتدمير الثقافة العربية الإسلامية الأمر الذي أرغم المستعمرين على أن يدخلوا اللغة العربية والدراسات الإسلامية في المواد الدراسية وأجبرهم على إدخال غير ذلك من الإصلاحات في ميدان التعليم العربي والثقافة الإسلامية، بيد أن حكومة الاستعمار مع ذلك لم تقم بما يساعد على نشر

٥٠- في المخطوطة "عينا" بدلا من "علينا".

٥١- المخطوطة نفسها، ص ١٤.

٥٢- شيخو أحمد سعيد غلادنت: المرجع نفسه، ص ٩٥.

اللغة وبث الثقافة الإسلامية^(٥٣)، واستمر المستعمرون بإضعاف الثقافة العربية عن طريق غير مباشر عاملين على تقوية ثقافتهم ودينهم المسيحي إلى أن استقلت الدولة عام ١٩٦٠م، وبعد الاستقلال أدخلت الحكومة بعض الإصلاحات الجذرية في تعليم الثقافة العربية الإسلامية نتيجة مطالبة المسلمين بالشمال من الحكومة بمساعدة المدارس الإسلامية والقرآنية، ومن الإصلاحات الجذرية التي أدخلت الحكومة الشمالية النيجيرية في نظام التعليم العربي الإسلامي بعد الاستقلال، تعيين موظف مسؤول عن تنظيم الدراسات العربية الإسلامية في وزارة التربية والتعليم^(٥٤)، وتشكيل لجنة وزارية يرأسها وزير التربية والتي اقترحت على الحكومة أن ترسل وفداً يضم كبار العلماء إلى البلاد العربية وكان الوزير جنيد رئيساً للوفد كما ذكرنا آنفاً، وبعد ما شهد الوفد ما شهده في البلاد الإسلامية الثلاثة ليبيا ومصر والسودان وعاد إلى أرض الوطن قدّم تقريراً مفصلاً إلى الحكومة، نلخص الاقتراحات الواردة فيه كما يأتي:

- ١- أن تعيّن الحكومة مفتشاً للمدارس القرآنية والمعاهد الدينية.
- ٢- أن تأمر الحكومة المركزية الحكومة الأهلية بتعيين مشرف في كل محافظة يقوم بتنظيم المدارس العربية الإسلامية.
- ٣- أن تكلف الحكومة المشرفين بمسؤولية وضع المناهج المبسطة وتفتيش وتوجيه المدارس العربية الإسلامية.
- ٤- أن تقدّم الحكومة مساعدات مالية وفنية بصفة دائمة للمدارس العربية الإسلامية.
- ٥- أن تفكّر الحكومة في إيجاد طريقة لوضع ميزانية عن كل مدرسة صغيرة كانت أو كبيرة في المدينة كانت أو في القرية.
- ٦- أن تنظم الحكومة سلسلة دروس من وقت لآخر لمدرسي معاهد العربية الإسلامية.
- ٧- أن تعترف الحكومة بأهمية المدارس القرآنية لأطفال المسلمين.
- ٨- أن تفتح الحكومة مزيداً من المدارس الثانوية إما من قبل الحكومة المركزية أو الحكومة الأهلية.

٥٣- المرجع نفسه، ص ٩٦.

٥٤- المرجع نفسه، ص ١٠٨ - ١٠٩.

وهذه هي بعض الاقتراحات التي قدمها وفد الوزير إلى الحكومة بعد عودتهم من رحلتهم الفاخرة^(٥٥). وقد بدأت الحكومة تضع الاقتراحات في حيز التنفيذ بعد تدريسها عندما خصصت مبلغاً قدره ١٥٠٠٠٠٠ جنيه لمشروع تنظيم وتنمية المدارس القرآنية والإسلامية. ومن هذا المبلغ تقدم الحكومة منحة أساسية ومنحة سنوية إلى طلاب المدارس القرآنية والإسلامية. وقد زاد عدد المدارس العربية الإسلامية بعد هذه الرحلة، ومن المدارس الجديدة التي أسست بعد هذه الرحلة "معهد لتدريب مدرسي العربية في كل من سكوتو وغنبي وكنو وكتشنه وبرنو"^(٥٦).

بهذا استطاع وفد الوزير أن يسد الفجوة الكبيرة التي كانت بين نظام التعليم الديني ونظام التعليم الوطني قبل هذه الرحلة، لاشك أن هذه من الإنجازات الفاخرة كما في عنوان هذه المخطوطة.
أسلوب المؤلف:

كان الوزير يعنى أشد العناية باختيار الألفاظ المناسبة ووضعها في أماكنها الصحيحة مما جعل أسلوبه يمتاز بجودة السبك، لا في هذه المخطوطة فحسب بل وفي جميع مؤلفاته في أدب الرحلات، يتمتع أسلوبه بسهولة الألفاظ وانسجام الأفكار الأمر الذي يجعل القارئ يشعر بالمتعة عند قراءة مؤلفاته، وهذا واضح جلي من القطعات السابقة. والجدير بالذكر أن هذا الكاتب لم يكن أول من أصدر هذا الحكم الإيجابي عن أسلوب الوزير، وقد سبقه في إصدار هذا الحكم من هو أفضل وأعلم منه، استمع إلى الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنت وهو يعلق على قطعة نقلها من إحدى مؤلفات الوزير أي من إحدى مخطوطاته في أدب الرحلات بعنوان إتحاف الحاضر بمراثي المسافرين:
"فأسلوب القطعة أسلوب سليم شبيه بأسلوب أهل التراجم والسير، ولا ركافة فيه ولا تعقيد ولا يظهر في القطعة أثر من مؤثرات اللغة المحلية كما يظهر من الكتابات الأخرى في الماضي..."^(٥٧).

ومما ساعد على جودة أسلوب الوزير - على ما نعتقد - هو اقتحامه في ميدان لا مجال لضعف الأسلوب فيه أي ميدان أدب الرحلات، إذ في المواضيع الدينية مجال فسيح يمكن اختفاء ضعف الأسلوب تحته، وذلك مثل اختفاء تحت سلسلة من الاقتباسات أو الاستشهادات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية، وهذه كلها قلما يحتاج إليها الكاتب في أدب الرحلات، فكاتب

٥٥- ومن أراد تفصيل هذا التقرير ينظر: شيخو أحمد سعيد غلادنت، المرجع نفسه، ص ١٠٩-١١٣.

٥٦- المرجع نفسه، ص ١١٣-١١٥.

٥٧- المرجع نفسه، ص ٢٢١.

في هذا الأدب يعتمد اعتماداً كلياً على أسلوبه الخاص في جميع ما يكتبه وما يصفه للقراء من أماكن وظروف وأشخاص وبيئات وما إلى ذلك. وإن دل هذا على شيء وإنما يدل على أن من له كفاءة في لغته وأسلوبه فقط هو الذي يستطيع أن يقتحم في ميدان أدب الرحلات، وهذا هو الميدان الذي اختاره الوزير لنفسه في بعض مؤلفاته إسهاماً منه في تقدم الثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد.

الخاتمة:

مما لا يحوم حوله شك أن المخطوطة التي نحن بصددنا من الوثائق العلمية التي يمكن الاعتماد عليها، لأنها تتمتع بالأمانة العلمية، نقول هذا بشيء من التأكيد علماً أن كاتب هذه المقالة المتواضعة ممن أتيح له فرصة مشاهدة بعض هذه الأماكن الموصوفة في المخطوطة وخاصة ما يخص بليبيا ومصر كما أن عدداً لا يستهان به من العلماء الأجلاء في هذا المؤتمر جاءوا من هذه الأقطار وشاهدوا بعض هذه الأماكن.

هذا، وقد رأينا فيما سبق ما جاءت به هذه الرحلة من الخيرات الكثيرة للثقافة العربية الإسلامية في نيجيريا عامة وفي شمال نيجيريا خاصة، وهذا يعد من أكبر ما يعتز به الوزير وأعضاء وفده ومن أعظم ما يفتخرون به. ومما يجدر الإشارة إليه أن قيمة هذه المخطوطة غير قاصرة على تطوير الثقافة العربية الإسلامية بل قد جاوزها إلى الميادين العلمية الأخرى، من ذلك علم التاريخ وعلم الآثار القديمة كما رأينا في بعض القطعات السالفة الذكر. ولأهمية هذه المخطوطة يرجى من أولي الأمر من المسلمين أن يقوموا بما هو أجدر بها من الاهتمام وذلك بطبعها وترجمتها إتماماً للفائدة، ونحن مدينون للوزير في هذا، ونأمل أن يخطو خطوته غيره من المؤلفين المعاصرين بتسجيل أخبار رحلاتهم مما تعود للإسلام والمسلمين بالفوائد في المستقبل، فجزاه الله عنا وعن الثقافة الإسلامية خير الجزاء، ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وآخِر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * * *